شهر الكنافة والقطايف

للأستاذ محمد سيد كيلاني

الكنافة أحب شيء عند الشرقيين، وبخاصة في شهر رمضان إذ يتسابق الناس في شرائها والتفنن في إعدادها وحشوها بالزبيب والصنوبر والجوز والفستق. وإذا أقيمت وليمة في هذا الشهر المبارك فان الكنافة من غير شك تحتل مكان الصدارة على المائدة، ولذلك يسمى شهر رمضان « شهر الكنافة والقطايف »

أما لفظ كنافة فلم يذكره أحد من أئمة اللغة. ولا نجد في الألفاظ اللغوية ما يصلح أن يكون مادة لها. فلعلها كلمة يونانية

روى السيوطي عن ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار أنه قال « كان معاوية يجوع في رمضان جوعا شديداً. فشكا ذلك إلى محمد بن آثال الطبيب فاتخذ له الكنافة فكان يأكلها في السحر فهو أول من اتخذها »

وهذا الخبر يشك في صحته. وذلك لأن المؤرخين المتقدمين لم يشيروا إليه. ولم يذكر لنا ابن فضل الله المصدر الذي نقل عنه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان الكنافة ليست الطعام الوحيد الذي يدفع به الجوع. وهي ليست علاجا حتى يصفه الطبيب ابن آثال. وكان من الممكن أن يقوم الرقاق مقامها ويسد مسدها. فما رواه ابن فضل الله. في هذا الموضوع يجب أن يوضع موضع الشك.

ولو عرفت الكنافة منذ عصر معاوية لذكرها الشعراء فيما ذكروا من أطعمة. فقد رأينا الشعراء حتى العصر العباسي الثاني يذكرون القطايف والخبيص والفالوذج وغيرها من أنواع الأطعمة، ولم نر في شعرهم أثرا للكنافة وهذا دليل واضح على أنهم لم يعرفوها ولم يسمعوا بها.

وقد لاحظت أن الشعراء المصريين كانوا أول من لهج بذكر الكنافة في أشعارهم وأول من تغنى بها. ومن هؤلاء أبو الحسين الجزار المصري إذ يقول:

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر . وجاد عليها سكر دائم الدر

وتبا لأوقات المخلل إنها . تمر بلا نفع وتحسب من عمري

ففي هذين البيتين نلمح نفسية الشاعر متبرمة ساخطة على أوقات الفقر والضيق التي لا يأكل فيها سوى المخلل: وفي ذكره كلمة « تبا » ما يدل على حالة نفسية خاصة. أما البيت الأول فهو دعاء للكنافة بالسقيا بماء الورد والسكر. وهو يدعو لها لأنه يحبها فهو في دعائه يعبر عن شعور داخلي نستشف منه الجوع والحرمان.

وكان الفقراء من الشعراء يستهدون الكنافة من الأعيان والموسرين بشعر فيه إلحاح كبير ودعابة مضحكة وفكاهة مطربة. فمن ذلك قول الشاعر المتقدم وهو

أيا شرف الدين الذي فيض جوده . براحته قد أخجل الغيث والبحرا

لئن أمحلت أرض الكنافة إنني . لأرجو لها من سحب راحتك القطرا

فعجل بها جوداً فمالي حاجة . سواها نباتا فا يثمر الحمد والشكرا

والظاهر أن هذا الصنف من الطعام كان له عند هؤلاء الشعراء المحرومين مكانة لا تدانى. فالشاعر هنا يمهد لطلبه بوصف الممدوح بالكرم ثم يشكو فقره واشتياقه إلى الكنافة. وفي البيت الأخير تتجلى نفسية هذا الشاعر المسكين، فهو يريد من الممدوح أن يعجل بإهدائه الكنافة. وقد خشي أن يعطيه شيئاً سواها وهو لا يريد غيرها. لذلك قال بان الكنافة وحدها هي التي تستوجب عنده جزيل الشكر وعظيم الثناء.

وكان الشعراء يتغزلون في الكنافة ويصفون محاسنها وجمالها ويتمنون دوام وصالها ويتألمون لهجرها وفراقها ويشكون من صدها وإعراضها. ونحن نقرأ ما قالوا في هذا الموضوع فنضحك، ومثال ذلك قول الجزار المتقدم وهو:

ومالي أرى وجه الكنافة مغضبا . ولولا رضاها لم أرد رمضانها

مجموعة أو قصيدة من شعر صديقي المرحوم « أحمد توفيق البرطباطي » إذا لم أجد ديوانه لتكون عماد بحث كله خير وأدب وفائدة فكنت على حد قوله عليه رحمة الله

تماقدت والأحوال عشرين حجة . لمن قيام بالأسى وقعود

فلست أبالي بعدها بلية . قرى الخطب عزم للملا وصمود

الكلام بقية **محمد محمود جملول**

عجبت لهـا من رقة كيف أظهرت   على جفا قد صد عنى جفاءها
ترى اتهمتنى بالقطايف فاعتدت   تصد اعتقادا أن قلبى خانها
ومذ قاطعتنى ما سمعت كلامهـا   لأن لسانى لم يخالط لسانها
الا خبروهـا أننى وحياتهـا   ومن صانها فى كل در وزانها
ليقبح أنى أجعل الحشو مذهبى   فأفسد شأنى حين يصلح شأنها

فالشاعر هنا يصور لنا افتقاره إلى هذا الصنف من الأطعمة فى صورة مضحكة. فقد شخص الكنافة وهى معرضة عنه، هاجرة له ثم تساءل عن السر فى هـذه القطيعة وذلك الاعراض أكان ذلك لأنها اتهمته بحب القطايف والجرى من ورائها فاعتبرته خائنا غادرا مجردا من الوفاء؟ ثم أخذ ينفى عن نفسه هـذه التهمة ويتبرأ منها. ويذكر أنه باق على عهده فى حبه واخلاصه لهـا. وأنه لا يقصد هذا الحب بوصل القطايف. وفى البيت الأخير تورية لطيفة فى كلمة «الحشو» فهى بمعنى التشبيه والتجسيم والنسبة اليها «حشوى» وهو الذى ينتمى إلى طائفة «الحشوية» المعروفة وهى تشير فى نفس الوقت إلى القطايف لأنهـا تحشى بالفستق والزبيب وغيره.

وهنا شاعر يتألم ويشكو لأنه لم يذق طعم الكنافة ولم ترها عينه الا عند البياع فى الدكان. قال:

مارأت عينى الكنافـة إلا   عند بياعهـا على الدكان

فما أتعس هذا الشاعر المسكين! وما أحوجه إلى العطف والرثاء!

وشاعر آخر يذكر ليـالى الكنافة الخالدة فى عمره بالخير فيقول.

ولم أنس ليلات الكنافة، قطرها   هو الحلو إلا أنه السحب الغر
تجـود على كفى فأهتز فرحـة   كما انتفض العصفور بلله القطر

فهذه الليالى التى نعم الشاعر فيها بأكل الكنافة اللذيذة باقية فى ذاكرته ولن تفارقه مادام حيا. ففى تلك الليالى السعيدة فى نظره كان حينما يمسك الكنافة بيده يكاد يجن من شدة الفرح ويهتز من فرط السرور كما يهتز العصفور الذى يبلله القطر.

وانظر إلى قول هذا الشاعر.

إليك اشتيـاق يا كنافة زائد   فمالى غنى عنك! كلا ولا صبر
فـلا زلت أكلى كل يوم وليلة   ولا زال منهلا بجرعائك القطر

فهذا تقديس للكنافة ليس بعده تقديس، ونوع من العبادة لهذا الصنف من الطعام. فالشاعر يعبر عن شوقه الذى لا حد له للكنافة ويذكر أنه لا يطيق فراقهـا ولا يستطيع عنها صبراً. فهى قبلته التى يتوجه اليها فى الغدو والآصال لا يصرفه عنهـا طعام آخر ولا يلهيه عنها شىء مهما جل وعظم.

ومن الشعراء من وازن بينها وبين القطايف وفضل الكنافة عليها. ومنهم من أظهر الكنافة بمظهر الساخر من القطـايف المحتقر لها. ومثال ذلك قول ابن عنين:

غدت الكنافة بالقطايف تسخر   وتقول انى بالفضيلة أجدر
طويت محاسنها لنشر محاسنى   كم بين ماطوى وآخر ينشر
لحلاوتى تبدو، وتلك خفية   وكذا الحلاوة فى البوادى أشهر

ففى هذه الأبيات ترى الكنافة تزهو بنفسها وتشمخ بأنفها وتتيه كبراً ودلالا، وتسخر من القطايف سخرية مرة. وتقول الكنافة هنا إنها أحق بالفضيلة من القطايف لأن محاسن القطايف مطوية وحلاوتها محشوة فى جوفها، وهذا يغض من قدر القطايف فى نظر الكنافة التى تمتاز منها بظهور محاسنها وجمالها. فالكنافة متبرجة سافرة تتصدى للناس وتلفت اليها الأنظار ببهائها وحسن روائها فيعرضون عن القطايف ويتهالون عليها. فهى ناجحة فى كسب الزبائن بما تثيره فيهم من كامن الشهوة. وهـذه ميزات ليست للقطايف.

وكان الشعراء يتبادلون الألغاز فى هذا الموضوع. ومثال ذلك ما كتبه أحد الشعراء إلى صديق له وهو:

ياواحدا فى عصره بمصره   ومن له حسن الثناء والسـنا
أتعرف اسما فيه ذوق وذكا   حـلو الحيا والجنان والجنى
والحل والعقد له فى دسته   ويجلس الصدر، وفى الصدر المنى

فأجابه بقوله:

عرفتنى الاسم الذى عرفته   وكاد يخفى سره لولا الكنى

يقصد بالكنا «الكنافة»

هكذا تناول الشعراء الكنافة. وكان شعراء مصر أكثر تناولا لها من غيرهم. وقد أسبغوا على ما نظموه فى هذا الموضوع الروح المصرى الذى عرف بالخفة والمرح، وأولع بالدعابة والفكاهة